



جمجمة فارغة

قلت :
- كيف تسألني هذا السؤال وأنا صاحب الجمجمة ؟
قال :
- جمجمة فارغة .
قلت :
- ليس لك الحق في التجسس على الاسرار .
قال :
- اعطني الاوراق الثبوتية لامرف النسبة الثوية
ضحكت ، وقلت :
- أنت من المجتمع .
اشتد غضبه فاعتلى الجمجمة وقال :
- ايها الناس ، هذه جمجمة فارغة .
انفجرت الجمجمة وتحطمت الكاس وادخلت بيتنا ضيفا .
نظرت الي عجوز وقالت :
- شفاك الله ، يا بني
اشتد ضحكي ، سألت دموعي ، تلمست جمجمتي فوجسدت
حرارتها مرتفعة ، صحت :
- كل عجوز افنت عمرها في الماخور لها قصر عرضه السماوات
والارض في جنة المسلمين .. »
في المدرسة صاح التلاميذ :
- جمجمة استاذنا فارغة !
استغربت وفاحتهم ، تلمست جمجمتي خفية ، نقرت عليها ، تبين
لي صدق قولهم ، أظهرت الجد وبصرامة حازمة قلت :
- أنا صاحب الامر هنا ، والعلم مقصور عليّ أنا ، وأنتم ليست
لكم القدرة على التمييز
تقدمت الي تلميذة ، ناولتني قلما احمر ، أسرت في الذني :
- هذه هدية صغيرة .. في الليل ضع القلم في الجمجمة ليكون
الام والتحول .
اغتررت بكلامها .. كونت أملا. خرج التلاميذ ينشدون نشيد
الجمجمة الفارغة .
قال لي رئيس المعهد :
- أحقا ما يقول عنك التلاميذ ؟
- ليتهمني كل متهم .. أنا اعتقد أن الزمن الحراري
سياتي عما قريب ، وسيظلمون مني العفو
* * *
كنت في البحر اسبح .. انتبهت .. عرفت أن جمجمتي فارغة ..
حاولت أن أرجع الى الشاطئ .. كانت مدينتي خالية. ضحكت وقالت:
- رئيسنا جمجمته فارغة .
قطبت جبيني ، قالت :
- مسكين رئيسنا ، ليس قادرا على تنظيم الاوامر .
وقفت امام الجمهور ، نظمت ربطة عنقي ، وضعت النظارات ،

سرت في الطريق ، استوقفني احدهم ، سألني أسئلة متعددة ،
لم اجبه ، اكتفيت بالإشارة الى جمجمتي ، نظر اليها ، اشتد ضحكه
لعني في نفسه ومضى :
اعترضتني موسى تستفتيني في عملها :
أنا
« الانا » مخاضها عسير .
أريد أن أقول « الانا » .
« الانا ، والنحن » الواحد ضمن المجموعة .
الظروف .
الطرف والظروف شيء واحد .
مشاكلي النفسية والاجتماعية .
جمجمتي وأنا شيء واحد .
يلزم النظر الى أصل الشيء بقطع النظر عن الأوصاف التي تلحقه
فيما بعد .
الفراغ والامتلاء شيان خارجان عن الجمجمة .
للمجتمع مفاهيم يكيفها كما يشاء ويتغنى بها يومه . أما الفساد
فشي مجهول
مفاهيم وضعية متغيرة .
لو كانت جمجمة المجتمع نظيفة لتغيرت نظرتهم اليّ انا مجبسة
على ان اقدم للانسانية الخير والحبة ، لولاى لوقع المجتمع في المهالك
فطهارته مستمدة مني أنا .
تلمست جمجمتي ، نقرت عليها نقرأ خفيًا وقلت :
لو كانت الجمجمة فارغة .
ذاك نعمت من نعمت المجتمع .
أشرت الى الشرطي ، هربت وهي تلعني قاتلة :
جمجمة لا تفهم المشاكل النفسية والاجتماعية .
احسست بالفراغ حاولت ان اتناسى .
قلت لصديقي :
- احقا ما يقال عني ... ؟
ابتمم قاتلا :
- ثمرة كل شجرة لا تكون في الغالب الا وقت اشتداد الحرارة .
وافقته ولكنني في نفسي قلت : « غبي لا يفهم »
حاولت أن أقنع نفسي بأن النعمت الذي الصقه بي المجتمع خاطيء
رددت في نفسي : « .. بما أن المجتمع له مفاهيم متغيرة من وقت الى
آخر ، وبما ان له تقاليد متوارثة يسير بها ولو كانت خاطئة ، فليّ
ان لا اعترف بمفاهيمه ، وعليّ ان احتقر تقاليده اذن يلزم ان اؤمن بان
جمجمتي ليست فارغة .. »
في المقهى رأيت جمجمتي على حافة الكاس تأملتها ...
خاطبتها بلهجة عاطفية : « يا جمجمتي العزيزة ... لك الف تحية ..
لك اعز ما عندي اياك ان تفتري باقوال المجتمع ، باعماله ، بحركاته »
أشرت الى الشرطي . سخر مني وقال :
- أنتمتع بمداركك العقلية حتى تفرض عليّ الاوامر ... ؟

تنحنحت ... صفق الجمهور ، شربت قليلا من الماء قلت :

- « ايها الجمهور ... ايها الجمهور ... ايها الجمهور . »
صفق الجمهور ، تلمست جمجمتي ، طفقت أكرر الجملة ، كان خطيب آخر في ركن من القاعة يلقي خطبة عاطفية .. حاولت الا انتبه اليه ، كان الجمهور يصفق ، ينتظر ما أقوله ، حاولت ان أتكلم ... ان أنظم جملة أرضي بها عواطف الجمهور ... اخيرا قلت لهم :
- هوذا أنا في ركن القاعة .. انظروا اليّ كيف أخطب
صفق الجمهور ، تنفست .. ضحكت ضحكة عريضة .. شعرت بارتياح .

* * *

قال بعض الناس : انه مجنون ، وآخرون قالوا : انه رجل معقد ، وآخرون قالوا : انه تفلّس كثيرا فجن . وآخرون قالوا : انه مسن سلالة مجانين ، وآخرون قالوا : انه من يوم ان وقع له ذلك الحادث اصبحت تعتريه حالات جنونية ، كثر القول ، نظروا اليّ مليا ومروا صاحكين .

جمجمتي اصبحت مشكلة لي ، يدي دائما تتلمسها . حاولت ان أقرأ كثيرا ، ان اطالع كثيرا عل شيئا ينبت في ركن من اركان الجمجمة في الليل لم استطع النوم . فرحت وقلت :
- عله ألم التكون أو ألم المعرفة .

في الصباح وقف الشرطي أمامي في المرآة ، حاولت ان اتناساه ، قال لي :
- انك متهم بما نوبته البارحة .

قلت :

- وهل يحاسب الانسان على ما ينويه ؟

قال :

- الاعمال بالنيات .

ضحكت كثيرا .. ضربته على راسه .. انفجر عقله صائحا :
- كنت ، يا سيدي ، ليلة كاملة تحاول ان تنشيء شيئا ... شيئا سريا خطيرا .. وأنا مكلف بالقبض عليك .. أرجو ان تسمح لي بذلك

قلت :

- لست أنا الذي أردت . أنا احسست باللم في الجمجمة وهي المسؤولة عن ذلك .

قال :

- أنت والجمجمة شيء واحد .

قلت :

- فلنعتبر هذا الألم الذي في الجمجمة جريمة فهي لم تتجاوز ذاتي والقانون لا يعاقبني على ذلك .

قال :

- ألم جمجمتك لم يقتصر عليك أنت ، فالجماجم الاخرى اصابها تصدع .

قلت :

- أهذا عمل يخالف القانون ؟

قال :

- القانون لا وجود له ، أنا الذي صنمته . وأنا اصنعه كما اريد وأقول لكم : هذا هو القانون .

قلت :

- اذن لا يحق لي التنفس والشعور بالهواء الخارجي .

قال :

- الشعور بالهواء الخارجي او مجرد التفكير فيه يعد جريمة اجتماعية خطيرة يعاقب صاحبها بالشنق

كان الشبان يصفقون ، قلت لهم :

- أهكذا تستكون على فعله ؟

قالوا :

- ماذا ترانا فاعلين ؟

قلت :

- ابحق له ان يتهمني !. سيأتي دوركم !

انهالت علينا الحجارة ... نظرت حولي .. الفيت جمجمتي ملقاة على الارض ، حملتها وأنا أردد : « مسكينة أنت يا جمجمتي ، يتهمونك بالفراغ وانت تحملين هم العالم »

اضطربت جمجمتي ، سعادة وخوف في آن واحد ... كانت المفامرة صعبة .. خرجت من نافذة من نوافذ جمجمتي أضواء كاشفة غمرتني ، صعقت اعصابي .

* * *

نظر اليّ رئيس المحكمة ، ضحك ، ضحك الجمهور ، تلمست جمجمتي ، تجمهر الذباب فوق راسه الاصلع ، كان فأر يجري وراء قط سرعت امرأة من الجمهور ، تقدم شرطي بتقرير بين جريمة القتل :
- كان عليه الاستسلام والامتثال لاوامر الفأر أحسن من ان يدخل

الفرع في فلوب الآمنين .

قفزت صاحكا :

- ما أغبي الآمنين !

قال الرئيس :

- « .. وحيث ان الفظ لم يتأذب وحيث انه لم يظهر الاحترام

وحيث انه أدخل الفرع على المرأة

وحيث انها ولدت أربعة توائم

وحيث ان هذه الاعمال منافية لمبادئ المحكمة

فقد تقرر :

ان يعدم الذباب .. »

استوى الشرطي قائما فوق صلعة الحاكم .. أطلق النار .. اهتزت الجماجم فرحا .. انفجر الدماغ ، فتصاعد منه الدخان وقال الرئيس « تعلق ميدالية ذهبية لهذا الشرطي نظرا لاجتهاده وحزمه في خدمة الوطن »

* * *

ذات مرة غافلت والدي وخرجت راكفا وصحت في أبناء الحومة:

- « تعالوا ... تعالوا ... »

انصتوا اليّ وأنا احرصهم على البطش بسيدنا المؤدب والثورة عليه .

صاح المؤدب :

- افراوا .

نظرت اليه وضحكت ، صحت في وجهه :

- « مؤدب مجنون ! »

صاح التلاميذ :

- « مؤدب مجنون ! »

قلت :

- انه لا يفهم ما يقول .

رددوا :

- انه مجنون .

قلت :

- انه كبغل الطاحونة .

رددوا :

- انه مجنون .

دخلت الكتاب خلصة ، وجدت عليا متجها نحو الحائط وسيدي

المؤدب فاتح ازرار سراويله ، صحت :

- « مؤدب مجنون »

احمر وجهه ، بصق عليّ وقال :

- أتهم سيدك الذي يعلمك الاخلاق ؟

صحت في وجهه :

- أت مصدر الايمان وبيدك مفاتيح جنة الآخرة .

في الصباح وجدت ان المؤامرة التي خططها أبي والمؤدب قد نفذت

تلمست جمجمتي .

أشار اليّ الاستاذ « أن الفتح الباب » فتحته .

قال :

– من فتح الباب ...؟

قلت :

– أنا

قال :

– انها قدرة الله

قلت ساخرا :

– بشهادة التلاميذ أنا الذي فتحته بيدي هذه يا سيدي .

قال :

– الله هو الذي أعطى ليذك القدرة لتتحرك .

قلت :

– أنا الذي اتحكم في حركاتي ، وأنا مسؤول عن نفسي .

قال :

– ستحاسب عسيرا .

قلت :

– ان عذابي شديد ، فانا جائع ، وابي مريض ، واخوتي صفار ،

وأمي مطلقه

قال :

– هذا في الدنيا . أما في الآخرة ...

قلت :

– وهل الآخرة شيء آخر ؟

قال :

– عذاب جهنم شديد

ضحكت .. ضحك التلاميذ .. تلمست جمجمتي .

احتد قائلا :

– كيف تتصور الجنة والنار ؟

قلت :

– كما يتصورها العقلاء .

قال :

– أقصد كيف تتصورها انت ؟

قلت :

– أبغض أن تكون في الجنة الحور العين وانهار من غسل ونمر

مشكل الالوان ؟ واذا افترضنا ذلك فاين ستوضع زبالة الأكلين ؟ ولماذا

تبدل جلود الكافرين في النار ؟

على هذا المفهوم يصبح لا قيمة للخلود والنار !

وضع أظافره في وجهي ، وصاح :

– تلميذ كافر ، عليك اللعنة الى يوم الدين

من أعلى المنبر صحت :

– ايها الناس ، ان الجمجمة تقول : « ان الله لم يخلقنا بمحض

ارادته ، انه مجبر على ذلك . »

– اشتدت الحرارة ، كان التفجر .

قال لي الرئيس :

– اينها الجمجمة الفارغة، المزعجة، اعلني عن توبتك امام الجمهور

قلت :

– حضرة الرئيس المحترم ..

قال :

– لا أريد خطبا .. انتهى عهد الخطب .

قلت :

– سيدي الرئيس . ان عدد السبعة يشغل الجمجمة ، فأتأ

أريد أن أفهمه .. فلماذا خلقت السماوات والأراضي في سبعة ايام

ولم تخلق في يوم واحد ؟ ولماذا عدد ايام الاسبوع سبعة ؟ ولماذا

السماوات سبع ؟ والأراضي سبع ؟ وايام فرحة الزواج سبعة

والسبعة في لعب الورق لها قيمتها ؟

قال :

– سبحانه لا يسأل عما يفعل ، أعلن عن توبتك ..

قلت :

– نور الشمس ضروري ، ورائحة الزهرة ضرورية ، ووجودنا

ضروري ، فالله شمس ونحن اشعتها . والله زهرة ونحن رائحتها .

اذن ليس من المعقول أن تكون شمس بدون أشعة . واذا انتفت الاشعة

انتفت الشمس ، فاذا كانت القيامة لا يكون لوجود الله معنى ، ولذلك

فلا أتصور أن يكون يوم قيامة ...

كان الجمهور خارجا من قاعة المحكمة وهو يحمل جنازة :

رحمان يا رحمان هذا عقلك واليوم يا رحمان قاصد فضلك

انتشيت وأنا استمع الى اصواتهم المنخفضة المرتفعة ، الناتئة ،

الليئة . تلمست جمجمتي .. قفزت فوق القبر صارخا

* * *

قلت لامي :

– أحقا ما يقول ابي عني ؟

داعبت شعري وقالت :

– ستكون عظيما .

قلت :

– ومتى ، يا أماه ؟

ناولتني قطعة حلوى وقالت :

– عندما تكبر وتصيح عاقلا ولا تثور في وجه مؤدبك

قلت لها :

– ان ابي يعيرني دائما ... أنا اكرهه

قالت :

– والدك يحبك ... جمجمتك ليست

شد ابي وناقني .. ضربني .. بكت ابي .. هدهدا بالطلاق .

قال لي :

– كل الناس يشكونك ، انك مجرم ، اذا لم ترجع عن غيبك

فسأعرف ما افعل لجمجمتك .

في الليل حركت جمجمتي فاذا هي ثقيلة ، فرحت وقلت فسي

نفسي : « لمن كل مكذاب ، ابي غير قادر على ما قاله ، ان جمجمتي

ليست فارغة ولا يمكن ان تفرغ ، اني اعقل ان والدي كذاب ، فاذا

عقلي موجود فيها ، ولو كان غير موجود لما ادركت ان والدي مكذاب

ولما ادركت أعمال المؤدب .

صحت بأعلى صوتي :

« جمجمتي ليست فارغة ! »

فتح والدي الباب .. انار البيت ، تناومت .

* * *

صاح الناس :

– .. يا سيدي « تليل » !

تقدم عجوز الى التابوت يتمسح به ، وهو يبكي . امرأة محمولة

على الاكتاف قالوا ان الجن صرعا ، بخور بتصاعد ، تضرع الى الولي

قالت لي ابي :

– قبّل التابوت عل الولي يرضى عنك فيشفيك .

قلت :

– أحي هو أم ميت ...؟

قالت :

– لا تضحك على الاولياء .

صاح الناس :

– « جمجمة فارغة ! »

قال الرئيس :

– « وحيث انك لا تؤمن بالجن

وحيث انك لا تؤمن بالاولياء

وحيث انك بلت فوق التابوت

وحيث أنك جمجمة فارغة .. »

قلت :

« حيشانكم جمل محفوظة لا معنى لها .. »

وجدت أمي في ثياب شفافة ، نظرت اليّ وقالت :

« اني امك ولا يحق لك ان »

قلت لها

« هذا هو منطق الحياة »

قالت :

« أنا ما أزال في عهد المراهقة وأنا اصفرك بعشر سنوات . »

قلت :

« القانون يقول ما كان محرما بالامس يتغير اليوم ويصبح حلالا . »

قالت :

« القانون هو القانون . »

قلت :

« حواء بنت آدم ومع ذلك عمرا الكون . »

كانت اختي واخي في خلوة غرامية صفتت وقلت :

« كذا الحياة المصرية »

صلوحة وحفيدها يتعاتبان :

« منذ أن كنا صفارا وأنا ... »

« أنا أكثر منك »

« هل تذكر اليهود ...؟ كنا نمارس الفرام تحت الشجرة »

« لله ما أحلاها ...! »

« تغيرت كثيرا يا حبيبي »

« الله يعلم ، لم أكن العهد »

« كيف حال سفراتك ...؟ »

« سفرات سنديادية »

« كانت أمي والآخرين يصيحون :

« جمجمة فارغة ! »

* * *

قلت لشيخ الحومة :

« باسم قرن الحريات »

صاح الاطفال :

« رجل مجنون »

صحت :

« لي الحق في التمتع بكامل حقوقي »

صاح الاطفال :

« رجل مجنون »

قالت المعجوز لحبيبها الصغير :

« أنت أمز ما فندي . ساهبك شبابي . »

قال لها :

« رغم شيوختي وصغر سنك فاني أجد متعة في الجلوس اليك »

قال لي الشرطي :

« أنت المسؤول يا سيدي . »

قلت :

« عم ...؟ »

قال :

« لم تتم البارحة . وهذا مخالف للقانون كما تعرف . »

قلت :

« ما هو القانون ...؟ »

قال :

« القانون هو القانون . »

قلت :

« زكام اصاب جمجمتي . »

صاح الاطفال :

« جمجمة مزكومة ! »

قال الشرطي :

« كثرة الذباب تفلقني »

قلت :

« شأن الحياة »

قال لي حاكم التحقيق :

« الانكار لا يفيدك شيئا »

نظرت اليه ضحكت ، تلمست جمجمتي نقرت عليها . قال :

« يلزمك الاعتراف . »

قلت :

« اعترف أنك ستكون في يوم الآخرة حاكما في الجنة التي بشر »

بها المؤمنون . »

قال :

« جزاك الله خيرا . »

قلت :

« جمجمتي ليست فارغة . »

قال لي السجنان :

« رأيت البارحة فأرا يأكل قطا . »

قلت :

« تلك هي الحقيقة . »

جلدني حتى الموت ، تلمست جمجمتي ، ضحكت ، شكرته على »

صنيعه وقلت :

« لم أر عظيما مثلك . واعتقد أن ربك سيجعلك في يوم الآخرة »

جلادا للمؤمنين »

قبّلني وبكى وقال :

« وان عمل الآخرة خير وأبقى . »

كان أبي والاستاذ والمؤدب وشيخ الحومة والجموع يصيحون :

« جمجمة فارغة ! »

بين الحين والآخر كنت أحس بوجع يداخل جمجمتي .. فرحت »

* * *

أحسست بدويّ ورائي ، خفت الاصطدام ، نظرت في مرآة »

السيارة رأيت مدينتي خربة تأكلها الجرذان ... بكيت ، انفجر الزمن »

الزمن الحراري .. انطلق دخان من الجمجمة ما لبث أن تكور على نفسه »

فكان العملاق »

قال الراوي :

« حفر الفار جحرا في صلعة الحاكم . وطار الذباب وانتهى . »

كان ياما كان . وغرق السنديباد وتحطمت سفينة « اوليس » على »

شواطئ جربة ، وأدرك شهرزاد الصباح ، وجن هارون الرشيد ، »

وانتشرت الجماجم المتصدعة في أنحاء العالم . »

كان القوم يرددون :

« رحمان يا رحمان هذا عبدك . واليوم يا رحمان قاصد فضلك »

حاولت اللحاق بهم . أحسست بثقل معني من القيام ، تلمست »

جمجمتي فاذا هي نوافذ مفتوحة على أجهزة الاعلام تعزف موسيقى »

الضياع . »

حمودة الشريف

استاذ بمعهد ترشيح المعلمين

بالقيروان